في تفسير الكتاب المقدّس، الجزء الأول

المتروبوليت سابا (اسبر)

عرف المسيحيون في البدء (القرن الأوّل الميلادي) الكتاب المقدس؛ في عهده القديم وفي بعض النصوص المتداولة من العهد الجديد. لنتذكّر أنّ الطباعة لم تكن متوفرة آنذاك، وتالياً لم يكن الكتاب المقدس الكامل، بعهديه وكل أسفاره متوفراً لجميع الناس، كما صار بعد عصر الطباعة (يوهان غوتنبرغ +١٤٦٨). وقد اعتاد المسيحيون، منذ القرن الأول، أن يقرأوا، نصوصاً من هذه الأسفار المقدسة في اجتماعات العبادة، وبخاصّة في القدّأس الإلهي (سرّ الشكر). فقد قامت بنية طقس القدّاس، منذ البدء، على الشكل التالي: طلبات وتسبيح، يليها قراءات من الأسفار المقدّسة ثمّ العظة، فباقي القدّاس.

احتلّ تفسير نصوص الكتاب المقدس أهمية عظمى عند المسيحيين. وعرفت الكنيسة تفاسير مختلفة متكاملة، بحسب المقاربة التي يقارب فيها المفسرون الكتاب المقدس، ولم ترفض الكنيسة تفسيراً بعينه، إلا في حال تعارضه مع العقيدة القويمة.

افتتح المسيح القراءة المسيحية للعهد القديم، عندما قرأ، في مجمع الناصرة، من سفر إشعيا: "روح الرب عليّ لأنه مسحنى لأبشر المساكين، أرسلني لأنادي للأسرى بالحرّية، وللعميان بعودة البصر إليهم، لأحرّر المظلومين وأعلن الوقت الذي فيه يقبل الربّ شعبه" (لو٤/١٨-١٩، النبوءة في إش ٦١/١-٢). ثم قرأ النصّ على ذاته بقوله للحاضرين: "اليوم تمّت هذه الكلمات التي تلوتها على مسامعكم" (لو٤/٢١). يقرأ المسيحيون العهد القديم على ضوء شخص المسيح. فكّكت هذه القراءة مغاليق الكثير من النبؤات التي جاءت في العهد القديم عن المسيح والثالوث والتدبير الخلاصي، وما إلى ذلك.

انطلاقاً من هذه القراءة وُلد **تفسير الكتاب بالكتاب**. حيث أنّ الوحي الإلهي تمّ تدريجياً، بدءاً من ابراهيم (القرن ١٨ ق. م) إلى المسيح الذي كشف الله لنا وجهاً لوجه "من رآني رأى الآب" (يو١٤/٩). فثمّة نصوص أتت في ما بعد وجعلت النصوص السابقة مفهومة وواضحة. يؤخذ الكتاب ككلٍّ متكامل، فلا يُعزل قسم منه ويُدرس باستقلال تامّ عن بقية الأقسام.

لنأخذ بعض الأمثلة. كتب متّى الإنجيلي للمسيحيين من أصل يهودي، فاستشهد بالعديد من نبؤات العهد القديم ليبيّن لهم تحقيقها في يسوع المسيح. فعندما كان يوسف محتاراً في أمر حبل مريم العذراء، وأخبره ملاك الربّ بالسرّ الإلهي، تحقّق ما جاء في كتاب إشعياء النبي، حسب قول متّى: "حدث هذا كلّه ليتمّ ما قاله الربّ بلسان النبي: ستحبل العذراء، فتلد ابناً يُدعى "عمانوئيل"، أي الله معنا" (مت١/٢٢-٢٣، النبوءة في إش ١٤/٧).

كذلك في أمر يوحنّا المعمدان يقول الإنجيلي: "فإنّ هذا هو الذي قيل عنه بإشعياء النبيّ القائل: صوت صارخ في البرّية: أعدّوا طريق الربّ. اصنعوا سبله قويمة" (مت٣/٣، النبوءة في إش ٣/٤٠).

في الفصل الرابع يقول أيضاً: "ولمّا سمع يسوع أنّ يوحنّا أُسلم، انصرف إلى الجليل وترك الناصرة وأتى فسكن في كفرناحوم التي عند البحر في تخوم زبولون ونفتاليم، لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: "أرض زبولون، وأرض نفتاليم، طريق البحر، عبر الأردن، جليل الأمم. الشعب الجالس في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور" (مت٤/١٢-١٦، النبوءة في إش ٩/١-٢).

في (متى٢٦/٥٦) يقول الربّ: "وأمّا هذا كلّه فقد كان لكي تُكمل كتب الأنبياء". فالكتاب وحدة كاملة، المسيح هو المحور الرئيس، محجوب في العهد القديم، ومكشوف بالكليّة في العهد الجديد.

لنأخذ مثالاً آخر. لماذا جاء الكلام عن الله في رواية الخلق في سفر التكوين بعامّة بصيغة المفرد "قال الله ليكن..."، أمّا حينما وصل النصّ إلى الكلام عن خلق الإنسان صارت الصيغة "بالجمع": "لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا" (تك١/٢٦)؟ لم يكن الله الثالوث قد كشف عن ذاته بوضوح في العهد القديم، بل في سياق كشفه الإلهي تدريجياً للإنسان أعطانا تلميحات مثل ظهور الرجال (الملائكة) الثلاثة لابراهيم، ورؤيا إشعياء للجالس على العرش وحوله السيرافيم يهتفون: قدّوس، قدّوس، قدّوس؛ ثلاث مرّات وغيرها. فبعد أن بتنا نعرف، بعد مجيء المسيح، أنّ الله ثالوث قدّوس: آب وابن وروح قدس. لنستذكر أحداث البشارة والمعمودية والتجلّي. هذا التفسير أساسي جدّاً في

الكنيسة الأرثوذكسية. لذا نقول أنّ الإنسان مخلوق على صورة الله الثالوث، مخلوق ليكون إنساناً شركوياً، كما الثالوث القدّوس، ليكون إنساناً علائقيّاً (في علاقة مع آخرين).

لا تتسع مقالة كهذه لهذا الموضوع الواسع. يبقى أن من يريد أن يتدّرب على هذا التفسير يلزمه أن يعود إلى قراءات العهد القديم التي تقرؤها الكنيسة الأرثوذكسية في صلوات غروب الأعياد السّيديّة بخاصّة، وأعياد الأحداث الكبرى والقدّيسين بعامّة. الليتورجيا هي مدرسة اللاهوت الأولى بامتياز. فلنستعرض بعض الأمثلة.

في غروب عيد الميلاد المجيد (البارامون) نقرأ ثمانية قراءات من العهد القديم. عندما نقرأ التالي، نفهم أنّ العصا صورة للمسيح (إش١١/١- ٢): "هكذا يقول الربّ: ستخرج عصا من جذر يسّى، وتنمي زهرة من أصله، ويستقرّ عليه روح الله، روح الحكمة والفهم."

وفي غروب رفع الصليب (١٤ أيلول)، نعرف أنّ العود الذي حوّل مرارة الماء المرّ في مارّة إلى عذوبة، إنّما صورة للصليب الذي سيحلّي حياتنا بتحويلنا من مرارة الخطيئة إلى حلاوة النعمة (خروج ١٥: ٢٢-١٦: ١).

وفي غروب ميلاد والدة الإله (٨ أيلول)، ندرك أنّ السلّم التي رآها يعقوب واصلة إلى السماء وملائكة الله تنزل وتصعد عليها (تك٢٨/٤-١٠) إنّما رسمٌ مسبَقٌ للعذراء مريم التي وصلت السماء بالأرض بتجسّد المسيح فيها، وأنّ الباب المغلق المتّجه إلى الشرق في كتاب حزقيال (٤٣/٢٧-٤٤/٤) هي أيضاً العذراء مريم التي وُلد منها المسيح الذي فتح لنا باب الفردوس الذي كان مغلقاً.

وفي السبت العظيم في أثناء الموعوظين يعتمدون، ينتظرهم المؤمنون في الكنيسة، وهم يسمعون خمس عشر قراءة تتكلّم عمّا هي رسوم مسبقة للمعمودية prototype.

هكذا بمواظبتنا على العبادة نكتسب فهماً كنسياً أرثوذكسياً، ونفهم العهد القديم على حقيقته، بحسب تدبير الله لخلاصنا.